لا استثني أحداً

2022/2/15

ما حدث في جامعة بيرزيت خلال الأسابيع القليلة الماضية كان جريمة شارك فيها الجميع، إدارة الجامعة ونقابة العاملين ومجالس الطلبة والمجتمع برمته. لا استثني أحداً.

مجموعة من الطلبة أغلقت جامعة بيرزيت بالجنازير، ومنعوا وصول خمسة عشر ألف طالب وطالبة إلى محاضراتهم وعشرات الأساتذة والموظفين إلى مكاتبهم ومختبراتهم. ربما كانوا يعتقدون أن أهدافهم نبيلة، وربما كانت تحركهم لذلك طموحات شخصية أو سياسيون متنافسون من خارج الجامعة، وربما، بل ومن الأكيد، أن هناك أخطاء جسيمة اقترفتها إدارة الجامعة ورأوا فيها مبرراً للإغلاق. ولكن ذلك كله لا يهم! ليس هناك أهداف نبيلة أو نوايا طيبة أو مبررات مقبولة لإغلاق الجامعة بهذه الطريقة. ما يهم، في النهاية، أن جامعة بيرزيت أغلقت بالجنازير، وتوقف إنتاج العلم والمعرفة لمدة 45 يوماً قضاها الأساتذة بدون تدريس أو أبحاث وقضاها الطلاب بدون دراسة أو عمل، وتوقف إنتاج السلع والخدمات داخل الجامعة وفي محيطها وخارجها من مطاعم ومكتبات وسيارات تكسي وغيرها، مما تسبب في خسارة كبيرة لتلك المجموعات.

ما شاهدناه ليس فقط تدميراً للاقتصاد وإنما – أيضاً – تآكلاً في رأس المال البشري والاجتماعي، وفقدان للثقة في المؤسسات التعليمية، بعد فقدانها في المؤسسات الصحية والتشريعية والقضائية والحكومية، وانهياراً لمنظومة الأخلاق والقيم التي تشكل الدعامة الرئيسية للمجتمع الفلسطيني، وتفككاً للروابط الاجتماعية التي تجمع بين مكونات الجامعة ومحيطها. فقد تم تجهيل خمسة عشر ألف طالب وطالبة لمدة شهر ونصف، وتم تشويه سمعة الجامعة الأكاديمية وتصويرها كأنها ساحة صراع سياسي وليس صرحاً علميا شامخاً، كما تم استخدام شعارات رنانة مثل رعاية أسر الشهداء والأسرى وحماية المشروع الوطني لتبرير سلوك الطلاب وكأننا في مواجهة مع العدو الإسرائيلي، وتم تبادل الاتهامات بين الأساتذة والطلاب وبين الأساتذة أنفسهم، كما تم التهجم على أساتذة مرموقين، وتمت شيطنة قامات وطنية معروفة فقط لأنها اختلفت معهم في الرأي.

أي مثالب أخلاقية هذه؟ كيف يمكن لأستاذ الجامعة بعد ذلك أن ينظر في عيني طالب كان يشتمه بالأمس؟ كيف يمكن لموظف في الجامعة أن يعمل إلى جانب زميل يعلم أنه يتربص به؟ كيف تفسر اللامبالاة التي أظهرها الآخرون، حكومة وأهالي طلبة ومؤسسات اجتماعية وغيرها؟ ما هي الدروس التي يتعلمها طلاب أخذتهم النشوة بأوهام القوة واعتقدوا أنهم انتصروا على إدارة الجامعة بالعنف والاعتصام وإغلاق الجامعة، وليس بالقانون والحوار؟ هؤلاء هم قادة المستقبل، كما ندعي، فهل سيعتقدون بأنهم سيحصلون على ما يريدون بغير تلك الأدوات عندما يتخرجون؟ هل سيلجأون إلى القانون والحوار عندما يتسلمون مناصب قيادية؟

ثم، ماذا حدث للقيم التي تقدس العلم والعمل والمثل العليا واحترام الآخر والتميز والقدرة التنافسية وغيرها؟ أين ذهبت مقولات "العمل عبادة" و "اطلب العلم ولو في الصين" و "من علمني حرفا صرت له عبداً"؟ كيف يمكن تبرير تكسير بعض ممتلكات الجامعة لأن مسؤولاً في الجامعة لم يستجب لطلباتهم، سواء كانت محقة أو غير محقة؟ كيف يمكن تبرير مطالبات طلابية بحذف أجزاء كبيرة من المنهاج والتسامح مع الغش في الامتحانات وشراء الأبحاث والأوراق البحثية والإعلان عنها على مواقع الطلبة في وسائل التواصل الاجتماعي جهاراً نهاراً وبدون خجل؟ إن الخسائر المعنوية والأخلاقية والاجتماعية هنا أكبر بكثير من الخسائر المادية الملموسة.

وأخيراً، ولعل ما يبعث على المزيد من الإحباط، أن هذه الجريمة الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية تمر دون مراجعة ودون تحقيق رسمي معمق لأسبابها وآثارها وانعكاساتها على الجيل الحالي وأجيال المستقبل، ودون أن يتحمل أحد مسؤولية ما حدث. تمر بصمت، بل وبطريقة شيه احتفالية بدعوى أنها انتهت بانتصار جامعة بيرزيت وطلابها وأساتذتها (انتصار على من؟). لم يحرك أحد من المسؤولين داخل الجامعة وخارجها ساكنا، كأن ما حدث كان مسرحية انتهت وصفق لها الحاضرون ثم أسدل الستار. ولن يستغرب أحد إذا تكررت المسرحية مرة ثانية وثالثة وعاشرة في الأيام القادمة، دون أن ينتبه أحد أن المياه تنزلق من بين أصابعه دون أن يدري.